التعدد اللغوي في الرواية وحوارية الخطاب عند باختين
التجليات والدلالة

رشيد وديجى/جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، المغرب

ملخص:

لا تعرف الرواية سلطة لغة واحدة، تؤول مباشرة وبطريقة بسيطة إلى "الروائي" بل تعدد اللغات المرتبط بتعدد الشخوص الروائية وتصادم وجهات نظرها حول العالم.

ففي هذا الاطار، إن مستويات التعدد اللغوي، لا تظهر فعاليته واجرائيته في لغة الرواية، إلا إذا صيغ بطريقة حوارية، أي بواسطة نقل ملفوظات الآخرين، وإعادة إنتاج اللغات السائدة في المجتمع. الشيء الذي ينعكس على أسلوب الرواية: فعندما تنقل الرواية كلام الشخوص الروائية، أو تتخللها أجناس تعبيرية، فإنها تمكن الروائي من إنجاز سرد ثنائي الصوت، يخلص الرواية من السرد الأحادي الصوت والنبرة.

لذلك يمكننا الذهاب إلى أن تنوع اللغات وتعدد الأساليب في الرواية، لا يصبح تعددا لغويا –بالمعنى الباختيني– إلا إذا شخص تشخيصا حواريا.

الكلمات المفتاحية:التعدد اللغوي؛ الحوارية؛ التهجين؛ الأسلبة؛ الباروديا؛ التنضيد؛ الشخوص.

Abstract:

The novel does not know the authority of a single language, which goes directly and simply to the "novelist" but the multilingualism associated with the multiplicity of fictional characters and the clash of views around the world.

In this context, the levels of linguistic pluralism do not appear to be effective and procedural in the language of the novel, unless they are phrased in a conversational manner, ie by conveying the voices of others and reproducing the dominant languages of society. What is reflected in the style of the novel: When the novel moves the words of narrative characters, or interspersed with expressive species, it enables the novelist to complete the narration of the sound, which narrates the narrative from the narrative monotone sound and tone.

So we can go to the diversity of languages and multitasking in the novel, does not become a linguistic plural - in the sense Albakhtini - unless someone diagnosed dialogue.

key words:Linguistic pluralism, dialogue, hybridization, genetics, parody, typography, characters.

تقـديم:

لقد نظر ميخائيل باختين[1] Mikhail Bakhtine إلى اللغة باعتبارها مرصدا للتحولات الاجتماعية إلى جانب اهتمامه بالبعد الجمالي فيها، وقد شكل مفهوم الحوارية Dialogisme أو التعدد اللغوي Polyphonie بؤرة نظرته إلى الرواية، إذ أن هذه الحوارية هي التي تتيح التقاط ايديولوجيات الرواية، انطلاقا من لغات متلفظيها، ومن ثم اعتبر اللغة مدخلا أساسيا لدراسة مختلف متغيرات الواقع الاجتماعي، وذلك عن طريق ربط الدليل بالإيديولوجيا. يقول في هذا الاطار:" إن كل ما هو إيديولوجي دليل، ولا وجود للإيديولوجيا بدون أدلة"[2]، لأن اللغة تستطيع أن تعبر بشكل دقيق عن الصراعات الاجتماعية، وتنعكس عليها مختلف التحولات التي يمر بها المجتمع، "إنها نمط العلاقة الاجتماعية الأكثر نقاء والأكثر وضوحا، إن ما تمثله الكلمة في دقة دلالتها، وما تمثله كظاهرة إيديولوجية، يجب أن يعطينا أسبابا كي نضع الكلمة في المستوى الأول لدراسة الايديولوجيا"[3]، وبناء على ذلك فإن الرواية، حسب باختين تكون ملتقى لمجموعة من اللغات الاجتماعية المتصارعة فيما بينها، يتمظهر ذلك في التعدد اللغوي الذي تزخر به.

إن أهمية التنوع اللغوي تتجسد في تحرير النص الأدبي من سلطة اللغة الواحدة، وكذا من نير الرؤية الواحدة. إضافة إلى ذلك، فهو يفسح مجال محاورة اللغات لبعضها البعض، من جهة، وتحطيم صورة النموذج من جهة ثانية. وعليه تكون الرواية ظاهرة متعددة الأسلوب واللسان والصوت، فتطرح على المحلل مهمة اكتشاف الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة التي تتمظهر في أشكال لسانية مختلفة وخاضعة لقواعد لسانية متعددة في الآن ذاته[4].

لذا تمثل الرواية "التنوع الاجتماعي للغات، واحيانا للغات والاصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا. وتقضي المسلمات الضرورية بأن تقسم اللغة القومية الى لهجات اجتماعية، وتلفظ متصنع عند جماعة ما، ورطانات مهنية، ولغات للأجناس التعبيرية، وطرائق كلام بحسب الأجيال، والأعمار، والمدارس، والسلطات، والنوادي، والموضات العابرة، وإلى لغات للأيام(بل للساعات) الاجتماعية والسياسية(كل يوم له شعاره، وقاموسه، ونبراته)".[5]

إن الرواية تشيد موضوعها، إذا، اعتمادا على تعدد اللغات والأساليب والأصوات، فهي تستقبل داخل بنائها عناصر ووحدات غير متجانسة، إذ تحتوي على لغات للمهن وللأجناس التعبيرية وللفئات الاجتماعية...وهي عناصر تتداخل فيما بينها فتشكل نسقا أدبيا منسجما. وطبقا لذلك، يظهر بأن بنية الرواية تتسم بالتعدد، غير أن هذا التعدد لا يؤدي إلى تفكيك النسق السردي، بل هو صيغة جديدة في الكتابة الأدبية تنتقد الصياغة الاختزالية، وتفصح عن الطبيعة التركيبية الحوارية للخطاب الروائي، وتعرب عن لغته المتنوعة.

وجبت الإشارة هنا أن باختين عمل على تشييد رؤية خاصة للغة الروائية؛ رؤية مدعومة بمنظورين: الأول لساني، والثاني اجتماعي. لهذا، وبناء على رؤية زمنية، يعد باختين من رواد التيار السوسيونصي، لأنه عمل على تخليص النص الأدبي عامة، والروائي خاصة من قبضة السوسيولوجيا الميكانيكية.

من هنا فاللغة في الرواية لا تعكس الواقع الاجتماعي وفق رؤية ميكانيكية، بل تقدم تصورا عن هذا الواقع؛ حيث تصبح اللغة وسيطا يقدم من خلاله المبدع تصوره للحياة الاجتماعية.

خارج أي نزعة تفضيلية، وتجاوزا لأي نظرة مرتبطة بالسيرورة التاريخية للجنس الروائي، تبقى الرواية جنسا ادبيا متمردا على سلطة اللغة الوحيدة. وانفتاح الرواية على التعدد اللغوي، باختلاف أشكاله وتنوع صيغه، ارتبط بتصور ميخائيل باختين للغة الرواية. من هنا نتساءل : ماهي أشكال وتجليات التعدد اللغوي في النص الروائي؟ وما علاقة ذلك بمفهوم الحوارية في الرواية؟

يمكن أن نحصر –مبدئيا ونظريا– هذه الأشكال المتصلة بإدخال التعدد اللغوي في النص الروائي فيما يلي:

أولا: أقوال الشخوص الروائية

ثانيا: الأجناس المتخللة

ثالثا: التشخيص الروائي للغة

رابعا: تنضيد اللغة

1– أقوال الشخوص الروائية

يتم إدراج التعدد اللغوي في جسم الرواية عبر خطابات الشخوص، فهي تترجم خطابات الآخرين داخل لغة أجنبية بالنسبة للكاتب. إن الروائي يعمد إلى عرض أقوال الشخوص مع الحفاظ على لغاتهم الخاصة، التي يقبع خلفها، حيث تتم المقابلة بينهم في إطار حواري دون تدخل من قبل المبدع الذي يشرع في التأثر بهم لبقائه خارج لغاتهم الخاصة، التي يقبع خلفها، حيث تتم المقابلة بينهم في إطار حواري دون تدخل من قبل المبدع الذي يشرع في التأثر بم لبقائه خارج لغاتهم. ويمكن للكاتب أن يلتقي بشخوصه في المناطق المحيطة بهم، ففي هاته المناطق" تهيمن أشكال البنيات الهجينة الأكثر تنوعا ودائما تكون تقريبا في صيغة حوار، وداخلها ينتشر الحوار بين الكاتب وشخوصه، وهو ليس حوارا دراميا متمفصلا إلى ردود، بل أنه حوار خاص بالرواية، منجز داخل بنيات لها مظهر مونولوجي"[6]. إن تنوع لغات مجتمع ما تتجسد في العمل الروائي عبر خطابات الشخوص التي تساهم في خلق تنضيد تراتبي للغة وتنسيب الوعي اللساني.

فالشخوص الروائية المتوفرة على درجات مختلفة من الاستقلال الأدبي والدلالي وعلى منظور خاص، تستطيع بفعل أقوالها وتدخلاتها في مسار السرد عن طريق الحوار، أن تكسر نوايا الكاتب، وأن تعتبر أقوالها وملفوظاتها بالنسبة إليه، إلى حد ما، لغة ثانية. وتمارس أقوال الشخوص الروائية تأثيرها على خطاب الكاتب، فترصعه بكلمات غيرية، وتنضده تراتبيا، وبذلك تدخل إليه التعدد اللغوي.

غير أن ما نلاحظه على "باختين" من خلال حديثه عن شكل "أقوال الشخوص" كعنصر من عناصر التعدد اللغوي، أنه يحصر هذا الشكل في صيغة الحوار المباشر بين الشخوص الروائية.

ننتقل الآن إلى العنصر الثاني من عناصر إدخال التعدد اللغوي إلى الرواية، وهو الأجناس المتخللة.

2- الأجناس المتخللة

لما كانت الرواية جنسا تعبيريا مفتوحا، فقد استقبلت داخل بنائها أشكالا تعبيرية متباينة سواء كانت أدبية أو غير أدبية حيث تستوعب في نسيجها أشعار وقصص ومقاطع كوميدية... إن هاته العملية لا تؤدي الى انصهار تلك الاجناس داخل النسيج الروائي، بل تحرص على الاحتفاظ باستقلالها، إذ تدرج لغاتها الخاصة ضمن الكيان الروائي، ومن ثم، تنوع لغته. إضافة إلى ذلك، فإن الرواية تتفاعل مع أنواع غير أدبية كالنصوص الفلسفية والعلمية والدينية، لهذا كثيرا ما نجد تتجاوز الحد الخاص بالآداب لتستحيل تارة إلى عظة أخلاقية وطورا إلى مؤلف فلسفي، ويغلب عليها أحيانا الطابع السياسي المكشوف[7]. هكذا يظهر أن الرواية لا تتحدث بواسطة لغة واحدة، بل من خلال لغات متعددة.

يظهر تأثير تلك الأجناس المتخللة على أسلوب الرواية، في كونها تدخل إلى الرواية حاملة معها لغاتها الخاصة ووسائلها الأسلوبية المتميزة، الشيء الذي يوسع من النسيج الأسلوبي للرواية ويعمق تنوع وحوار لغاتها. من هذه الزاوية الحوارية، تأخذ لغات الأجناس خارج الأدبية داخل الرواية أهمية بالغة، لدرجة إن إدخالها إلى النص الروائي يسترعي الانتباه ليس فقط في تاريخ الرواية، وإنما في تاريخ اللغة الأدبية بعامة.

وعلى مستوى الدلالة، تعمد تلك الأجناس المتخللة إلى كسر نوايا الكاتب والحد من سلطته، باستقطاب لغات جديدة إلى الرواية. إذ ينظر إلى هذه اللغات الجديدة، قبل كل شيء على أنها وجهات نظر حاملة لمضامين فكرية، تسعف الرواية على تعديد منظوراتها ورؤاها للعالم.

ومن وجهة نظر تاريخية، فإن الرواية نشأت في ملتقى الأجناس الأدبية، واعتمدت على آلية التفاعل واستعارة النصوص لتشكيل قالبها الفني، وهذه الخاصية ستلازم الرواية طيلة مغامرتها الطويلة.

إن دور تلك الأجناس المتخللة جد كبير، لدرجة أن الرواية، يمكن أن تظهر وكأنها مجردة من إمكاناتها في التشخيص الأدبي للواقع، وفي حاجة دائما إلى "مساعدة" تلك الأجناس، مادامت الرواية على حد تعبير "ميلان كونديرا":"تملك ملكة استثنائية على الاستيعاب: ففي حين أن الشعر والفلسفة لا يقدران على استيعاب الرواية، تقدر الرواية على استيعاب الشعر

والفلسفة دون أن تفقد شيئا من هويتها التي تتميز على وجه الدقة بنزعتها نحو ضم كل الأنواع، وبقدرتها على هضم كل المعارف الفلسفية والعلمية"[8].

وتجدر الإشارة، إلى أن "تنوع اللغات ليس تنوعا في الأصوات والعلامات، ولكنه تنوع في الرؤى للعالم"[9]. وقد أفصح عن ذلك باختين حين اعتبر أن لغات التعدد اللساني هي بمثابة وجهات نظر نوعية حول العالم، أي بوصفها خطابات ايديولوجية. غير أن حديثه عن الخطاب ظل مجردا، بحيث لم يكشف عن كيفية تحققه على المستوى الدلالي والتركيبي.

نستحضر في هذا السياق، محاولة بيير زيما لكونها عملت على تجاوز هاته الثغرة. لقد استبدل الناقد مفهوم الملفوظ الذي استخدمه باختين بمفهوم لهجة الجماعة sociolecte والتي يراد بها لغة إيديولوجية تعبر على المستويات المعجمية والدلالية والتركيبية عن مصالح جماعة محددة، وهي تخضع للتطور تبعا للصراعات القائمة بين الجماعات الاجتماعية. ذلك أن المجتمع يتكون من جماعات متناقضة، لكل جماعة لغتها الخاصة بها التي تعبر عن مصالحها، إذ تعمل على تشكيلها انطلاقا من عملية تصنيفية تحدد من خلالها اختياراتها الدلالية، لهذا" يمكن وصفها على ثلاثة مستويات مكملة لبعضها البعض، حيث أن لها بعدا معجميا وبعدا دلاليا وبعد تركيبيا أو سرديا. وبوصفها بنية سردية فان لهجة الجماعة تتخذ شكل خطاب(تجسيد خطابي). وهي لديها بعد لفظي حيث انها تتكون من كلمات ذات دلالة تسمح بالتعرف على المستوى الأمبريقي على لهجة الجماعة الليبرالية، المسيحية، الماركسية أو الفاشية. وهكذا فان كلمات مثل فرد، حرية، استقلال أو مسئولية تميز لهجة جماعة ليبرالية أو ليبرالية–جديدة"[10] أي أن لكل جماعة لغتها الخاصة بها، التي تعبر من خلالها عن رؤيتها الخاصة للعالم.

إلى جانب ما سبق ذكره، نستطيع أن نشير إلى أن باختين قد حاول أن يتجاوز التحليلات السوسيولوجية الكلاسيكية عن طريق ملامسة النص الروائي من خلال مستواه اللغوي، حيث وقف عند مفهوم التعدد اللغوي باعتباره يمثل أحد المفاهيم الأساس المشكلة للخطاب الروائي، الشيء الذي ادى به إلى اقتراحه كمفهوم ضروري لإضاءة هذا الخطاب. معنى ذلك، أنه اتخذ من اللغة مدخلا ضروريا لقراءة الخطاب الروائي.

ونصل الآن إلى العنصر الثالث، الذي يتصل بإدخال التعدد اللغوي إلى الرواية، وهو " التشخيص الروائي للغة ".

3– التشخيص الروائي للغة:

تعد الحوارية من أهم المفاهيم التي أدرجها ميخائيل باختين ضمن حقل النقد الروائي، بوصفها تمثل مفهوما مركزيا في الخطاب عامة، والخطاب الروائي خاصة. وقد استنبط هذا المفهوم من خلال دراسته لأعمال دستويفسكي Dostoievski حيث تتجسد العلاقة الحوارية بين الأبطال، ذلك "أن الخطاب الذي يكونه البطل حول نفسه يتكون من الخطابات التي يكونها الآخرون حوله: إنه يتكلم ويفكر من خلال الآخر. ومن هنا تتداخل أصوات متناقضة وأحكام ووجهات نظر متنوعة على فم واحد"[11]. من هنا يكون الخطاب ذاتيا وجماعيا في الوقت نفسه، فهو يتشكل داخل الحوار الذي يقام بين المتكلمين حول

موضوع محدد يكون فيه هذا الأخير نقطة تقاطع بين المتكلم والمتلقي والسياق. فالخطاب من هذا المنظور "يولد داخل الحوار مثلما تولد إجابته الحيوية، ويتكون داخل فعل حواري متبادل مع كلمة الآخر بداخل الموضوع، فالخطاب يفهم موضوعه بفضل الحوار"[12]. الشيء الذي ينفي وجود خطاب خالص غير خاضع لتأثير الخطابات السابقة واللاحقة، لأن الخطاب ينبثق من رحم الخطاب السابق كما أنه يشكل أرضية يبني عليها الخطاب اللاحق. ومن ثم يكون متضمنا الردود على خطابات سابقة، ويستبق أجوبة لم تصدر بعد، فهو، إذا، حلقة ضمن سلسلة التواصل اللفظي. وعليه "إن الخطاب المكتوب إنما يشكل من الأشكال جزء لا يتجزأ من نقاش إيديولوجي يمتد على نطاق واسع جدا : إنه يرد على شيء ما، ويفند، ويؤكد، ويستبق الأجوبة والاعتراضات المحتملة، ويبحث عن سند...".[13]

وتبعا لذلك ينتفي مفهوم الكاتب، لأن المبدع لا ينطلق من فراغ، بل يستند إلى الكتابات السابقة من أجل إنتاج كتابة جديدة، وهو الأمر الذي عملت جوليا كريستيفا Julia Kristivaعلى تطويره، حيث اعتبرت المبدع بمثابة نص آخر، نظرا لكون المخاطب الذي يتوجه إليه الكاتب هو الكاتب نفسه كقارئ لنص آخر. ومن ثم تصبح البنية الحوارية هي العلاقة بين النصوص، علاقة بين النص السابق والنص اللاحق، مما يفضي إلى إنتاج بنية تنطوي على ازدواج قيمي[14].

هكذا يظهر بأن الخطاب ينشأ خلال العالقة التفاعلية بين أفراد المجتمع. لئن كان يصدر عن شخص، فهو في الوقت ذاته يوجه إلى شخص آخر أي أن الخطاب يتسم بطابعه التكويني المزدوج، لذا فإنها كل متكلم هو في الآن ذاته مستمع والعكس صحيح. وتجب الإشارة في هذا الصدد، إلى أن المخاطب لا يمثل ذلك الآخر الخارجي الذي يوجه إليه الخطاب فحسب، ولكنه يشكل جزءا من مقتضيات الأسلوب فهو يدرج ضمن تركيبته الداخلية، لأن المتكلم ينسج خطابه استنادا إلى الخلفية الإدراكية لمخاطبه حيث يعمل على إدراج الطريقة التي ينبغي أن يفهم بها المتلقي ضمن الصياغة الداخلية للخطاب، لذا يشيد هذا الأخير فوق أرض أجنبية، ومن خلال الخلفية الإدراكية لمحاوره[15].

وعليه، يشير باختين إلى أن الخطاب ينشأ في منطقة الحدود بين المتكلم والمخاطب، أي أن بنية الخطاب هي ذات طبيعة تكوينية تتوفر على ازدواج قيمي. ومن ثم، فإن المخاطب يدرج ضمن البنية التركيبية للخطاب، ذلك أن "الاختيار البسيط لنعت أو استعارة هو فعل تثميني موجه في اتجاهين: نحو المستمع ونحو البطل. فالمستمع والبطل يساهمان باستمرار في ظاهرة الخلق التي لا تتوقف لحظة عن أن تصبح ظاهرة للحوار الحي بينهما"[16]. كل هذا يؤكد على ضرورة استحضار المتلقي أثناء عملية تشكيل الخطاب.

إن الحوارية، إذا، خاصية تميز جميع الخطابات، غير أنها تتجلى بوضوح في الشكل الروائي، وفي هذا الإطار تعلن كريستيفا أن "الرواية هي النوع الوحيد الذي يتوفر على كلمات ذات ازدواج قيمي، وتلك تعد الخاصية المميزة لبنيتها"[17]. غير أن هذا القول لا يعني نفي الحوارية عن الخطاب الشعري، وإنما يمكن الاعتماد على تعدد الأصوات في الشعر، غير أنه لا يمتلك

القدرة على التشخيص كما هو الأمر في الجنس الروائي الذي يمنح الأصوات فرصة التعبير المستقل. معنى ذلك أن البناء التركيبي للخطاب الروائي يفسح مجالا لتحقق الحوارية بشكل قوي قياسا إلى ما يمكن أن يحدث في الخطاب الشعري.

ولما كان الخطاب الروائي هو الخطاب المفضل عند باختين، فقد خصص جزءا كبيرا من أبحاثه لدراسة بنائه الداخلي، حيث انتهى إلى القول أن بعض عناصر النسيج الروائي ترتبط بصلة قربى بخطابات قديمة كان لها الفضل في إرساء الأسس الأولى لتشكل الجنس الروائي، مما يبرز وجود علاقة حوارية بين الخطاب الروائي والخطابات السابقة.

والجدير بالإشارة هنا، إلى أن الرؤية الباختينية الحوارية قد وجدت امتداداتها، وتطورها من خلال وجهة نظر جوليا كريستيفا التي تشير إلى أن كل نص هو بمثابة تحويل وامتصاص لنصوص أخرى بحيث يقع تفاعل بين النصوص عوض الذوات، ومن ثم تقترح مفهوم التناص بدل مفهوم التذاوت، إذ تقول :"كل نص يبني مثل فسيفساء من الاستشهادات، فكل نص هو عبارة عن امتصاص وتحويل نص آخر. لذايوضع مفهوم التناص i'lntertextualité بدل مفهوم التذاوتL'intersubjectivité. وتقرأ اللغة الشعرية على الأقل بكيفية مزدوجة"18.

إن النص الأدبي يتشكل عبر تفاعل نصوص متعددة، غير أن هذا التفاعل لا يغفل التعالقات الاجتماعية والتاريخية، لذا تحدثت كريستيفا عما يسمى الإيديولوجيم Ideologéme[19]وهو "يمثل هذه الوظيفة التناصية التي يمكن أن نقرأها مجسدة في مستويات مختلفة لبنية كل نص، والتي فيه مانحة إياه ترابطاته التاريخية والاجتماعية...إن قبول النص باعتباره أيديولوجيما يحدد المنهج ذاته السيميولوجية تدرس النص بوصفه تناصا، وتنظر اليه في نصوص المجتمع والتاريخ"[20].

وقارئ هذا النص لن يجد صعوبة في اكتشاف تأثر كريستيفا بالتصور الباختيني، فهي تنظر إلى النص الأدبي باعتباره نقطة تقاطع خطابات متعددة أو مجال التقاء نصوص مختلفة–حسب تعبيرها– إذ يعمل النص الأدبي على امتصاص نصوص سابقة أو معاصرة وكذا نصوص خارج أدبية. وتبعا لذلك، فهي ترى بأنه لا ينبغي الاقتصار على البحث داخل بنية العمل الأدبي فحسب، بل يجب الكشف عن كيفية تبنينه من خلال علاقته التناصية مع نصوص أخرى. ذلك أن النص الأدبي يتحدد–انطلاقا من وجهة نظر الناقدة– من خلال محورين: "محور أفقي (الذات–المتلقي) ومحور عمودي (النص–السياق)"[21]. ويلتقي هذان المحوران من أجل كشف حدث رئيس يتمثل في كون الكلمة (النص) هي مجال لتقاطع كلمات أخرى (نصوص أخرى) حيث نقرأ على الأقل كلمة أخرى(نصا)"[22]. أي أنه داخل الكلمة تلتقي قيم متعددة، وبالتالي خطابات متباينة، إذ نجد خطاب المتكلم وخطاب المتلقي، وكذا السياق كلها عناصر تتداخل فيما بينها في إطار علاقة حوارية.

ولئن كان باختين يرى بأن النص الأدبي هو امتصاص لنصوص أخرى، فإنه لا يعتبره مجرد إعادة إنتاج لشيء يسبقه في الوجود، بل يفصح عن قيمة جديدة ومتفردة. ذلك أن الخطاب من وجهة نظره لا يعد انعكاسا بسيطا يعيد إنتاج ما هو موجود سابقا، وإنما هو قيمة مضافة، وإن كان ينهض في سيرورة تشكله على أشياء معطاة: (اللغة، والظاهرة الملاحظة في الواقع،

والاحساس المعيش، والشخص المتكلم ذاته الذي ينتمي في رؤيته للواقع)، إن المعطى يتحول إلى مبدع[23]، فالعناصر الخارج نصية عندما تدخل إلى النص الأدبي تكتسب معنى مغايرا.

وبخصوص العلاقة الحوارية بين خطاب وآخر، يعلن باختين بأنها تصنف في اتجاهين مختلفين: أحدهما يعمل على المحافظة على حدود واضحة بين الخطابين، وينطبق ذلك على الخطاب السلطوي الذي يفرض نفسه على المتكلم، ويلزمه به كما هو دون تضمينه داخل سياق معين. ويندر استعمال مثل هذا النموذج في الخطاب الروائي. وثانيهما يسعى إلى إذابة الحدود الفاصلة بين الخطاب المشخص والخطاب المشخص، مما يفضي إلى تشكيل صورة للغة، ذلك ان الخطاب المروي يمتزج مع السياق السردي لدرجة يصعب خلالها فصل أحدهما عن الآخر .إن هذه الصياغة الحوارية الداخلية تؤدي إلى تشكيل صورة للغة، لأنه في غياب الحوار الداخلي لا يتم الحصول هاته الصورة. لذا "يجب أن تكون صورة اللغة في الفن الأدبي من حيث جوهرها، هجينا لسانيا(قصديا)، ويحتم أن يوجد الزاميا وعيان لسانيان: الوعي المشخص، والوعي الذي يشخص، وهما معا ينتميان إلى نسق لغة مختلف. ذلك لو لم يكن هناك ذلك الوعي الثاني المشخص، تلك الإرادة الثانية للتشخيص، لشهدنا لا صورة للغة، بل مجرد عينة من لغة الآخرين، صادقة، أو مزيفة"[24].

إن التشخيص الأدبي للغة يشير إلى أن الخطاب الأدبي هو خطاب على خطاب، وعملية التنضيد هاته تتم عبر تشخيص يجمع بين الخطاب المشخص والخطاب المشخص ضمن سياق سردي.

وتجب الإشارة إلى أن تضمين خطاب الآخر داخل سياق معين يؤدي إلى تغيير مدلوله، لأن "كلام خطاب الآخر داخل سياق ما، مهما بلغ نقله من الدقة، فإنه يتعرض دائما لبعض التعديلات في المعنى، فالسياق الذي يشمل كلام الآخر، يوجد خلفية حوارية يمكن لتأثيرها أن يكون على درجة كبيرة من الأهمية".[25]

تأخذ هاته العلاقة الحوارية بين الخطابات ثلاثة تمظهرات داخل الخطاب الروائي، وهي كالآتي:

أولا: التهجين

ثانيا: تعالق اللغات القائم على الحوار

ثالثا: الحوارات الخالصة

من خلال ماسبق، سنقف عند كل مفهوم على حدة، لنرى أشكال تجلياته وطرائق اشتغاله، ونكتشف أبعاده السوسيولوجية.

1-التهجين hybridation'l:

يترابط في هذا النوع الخطاب المشخص مع الخطاب المشخص داخل ملفوظ واحد، حيث ينشأ حوار داخلي بين صوتين لسانيين.

إن التهجين يعود إلى صاحب ملفوظ واحد، وذلك تبعا لعناصره التركيبية، لكنه في الوقت نفسه يشهد تفاعلا بين ملفوظين وأسلوبين ولغتين، أي أنه يمثل منظورين دلاليين واجتماعيين[26]. معنى ذلك، أنه يجري تجاوز بين وعيين اجتماعيين مفصولين بحقبة زمنية أو بفاصل اجتماعي، وهو تجاور يرمز إلى الطابع النسبي الذي يتسم به كل وعي. ويجب تمييز الهجنة الأدبية عن الهجنة التاريخية لأن الأولى تكون قصدية، ويتجاور داخلها وعيان لسانيان حيث ينسجا علاقة حوارية تشكل صورة للغة، خلافا للهجنة التاريخية التي تتصف بانصهار أشكال الوعي داخلها، ذلك "أنه في هجنة تاريخية عضوية لا تمتزج فقط لغتان، وإنما وجهتا نظر اجتماعيتان–لسانيتان (وأيضا عضويتان)، غير أنه هنا، يكون مزيجا سميكا ومعتما، وليس تجاورا وتعارضا واعيين، ومع ذلك، من الضروري التدقيق بأن هذا المزيج السميك، المعتم، لوجهات النظر اللسانية حول العالم هو منتج بعمق، تاريخيا داخل الهجنات العضوية: أنه ينطوي على رؤيات جديدة للعالم، وعلى أشكال داخلية جديدة لوعي لفظي للعالم"[27].

وإذا كان التهجين لا يخلو من طابع أدبي وفني مقصود، فإن الروائي "وهو يلجأ إلى التهجين قصد تنويع أسلوبه الروائي، توجهه مقصدية فكرية وجمالية، وبذلك يكون التهجين علامة ملغية لبراءة مزعومة تربط الروائي باللغة"[28].

إن التهجين، إذا، هو مزج بين لغتين اجتماعيتين داخل ملفوظ واحد، والتقاء وعيين، لغويين مفصولين، داخل ساحة ذلك الملفوظ، ويلزم أن يكون التهجين قصديا.

2–تعالق اللغات القائم على الحوار:

يلتقي هذا الشكل المجسد للحوار الداخلي بين اللغات مع التهجين من حيث صياغتهما الحوارية تلك التي تجري داخلها إضاءة لغة من قبل لغة أخرى. غير أنه في تعالق اللغات القائم على الحوار تقدم إحدى اللغات من خلال وعي الأخرى، لأنهما لا يجتمعان في ملفوظ واحد. إن النموذج الأكثر تمثيلا لهذا الشكل يتجلى في الأسلبة stylisation la، إذ يعمل المؤسلب على إضاءة اللغة موضوع الأسلبة دون القيام بوضعها إلى جانب لغته الخاصة، فهو "لا يتحدث عن موضوعه إلا من خلال تلك اللغة التي سيؤسلبها والتي هي أجنبية بالنسبة إليه، لكن هذه اللغة الأخيرة هي نفسها مقدمة على ضوء الوعي اللساني المعاصر للمؤسلب"[29].

ويشترط باختين في الأسلبة أن يوجد " الزاميا، وعيان لسانيان مفردان: وعي من يشخص (الوعي اللساني للمؤسلب) ووعي من هو موضوع للتشخيص والأسلبة"[30].

هكذا، يظهر بأن المؤلف يستعمل خطاب الآخر ويوجهه لتحقيق مقصده، أي أن العلاقة الحوارية بين الخطابين تتسم بطابع انفعالي لأن المؤلف يجرد الكلمة الغيرية من دلالتها ويضمنها موقفه الإدراكي، فيرغمها بذلك على خدمة أهدافه الجديدة[31]. ويختلف هنا تقليد الأساليب عن المحاكاة من حيث أن هاته الأخيرة تقوم بعملية انصهار كلي بين الأصوات، وتنزع إلى الاقتران بالكلمة الغيرية كأنها شيء واحد.

ويشير باختين إلى أن المؤسلب يستطيع أن يدرج لغته المعاصرة في عملية الأسلبة، غير أن الأمر في هاته الحالة لن يتعلق بالأسلبة، وإنما بشكل آخر من الإضاءة المتبادلة بين اللغات، وهو ما يسميه بالتنويع، حيث "تصبح اللغة حقيقية وفعلية في التلفظ فقط، ولكنها تقدم بتسليط ضوء لغة اخرى عليها. وهذه اللغة الاخرى غير مدركة وتبقى خارج التلفظ"[32]. اي ان مادة اللغة الاجنبية–لغة تراثية مثلا– حاضرة في الملفوظ من زاوية اللغة المعاصرة، سواء فيما يتعلق بمادتها اللغوية او حمولتها الفكرية.

ولكي نقف على هذا الفرق الجوهري الدقيق بين الأسلبة المباشرة والتنويع، نأخذ هذين المثالين:

الأسلبة: لغة تراثية مقدمة في ضوء لغة عصرية، لكن الطابع الغالب على الملفوظ هو لغة التراث من حيث معجمها وحمولتها الفكرية، بينما تظل اللغة المعاصرة تعمل في الخفاء بشكل مضمر. إلا أننا نستشف تأثيراتها من السياق، ونلتقط بذلك الانتقادات الساخرة المضمنة في الملفوظ..

التنويع: لغة تراثية مقدمة في ضوء لغة عصرية، لكن الطابع الغالب على الملفوظ هو اللغة المعاصرة من حيث مادتها اللغوية وحمولتها الفكرية. إذ يتم انتقاد لغة التراث، بلغة معاصرة مجسدة وحاضرة في الملفوظ. "إن التنويع يدخل بحرية مادة للغة" الأجنبية "في التيمات المعاصرة ويجمع العالم المؤسلب بعالم الوعي المعاصر، ويضع موضع الاختبار اللغة المؤسلبة وذلك بإدراجها ضمن مواقف جديدة ومحالة بالنسبة لها"[33].

ويتحدث "باختين" عن شكل ثالث من أشكال الإضاءة المتبادلة بين اللغات ذات الصيغة الحوارية الداخلية، وهو الباروديا parodie la، ففيها "نجد المؤلف شأنه في تقليد الأساليب، يتحدث بواسطة كلمة الآخرين، ولكنه –بعكس ما يفعله في تقليد الأساليب– يدخل في هذه الكلمة اتجاها دلاليا يتعارض تماما مع النزعة الغيرية. إن الصوت الثاني الذي استقر في الكلمة الغيرية يتصادم بضراوة مع سيد الدار الأصلي ويجبره على خدمة أهداف تتعارض مع الأهداف الأصلية تماما، الكلمة تتحول إلى ساحة لصراع صوتين اثنين"[34].

بعبارة أخرى إن " نوايا اللغة المشخصة لا تتوافق مطلقا مع نوايا اللغة المشخصة"، أي تعمل اللغة الأولى على مقاومتها وفضحها وتحطيمها، بيد أنه ليس تحطيما سطحيا أو بسيطا، مادام " عليها أن تعيد خلق لغة بارودية وكأنها كل جوهري مالك لمنطقه الداخلي وكاشف لعالم فريد مرتبط ارتباطا وثيقا باللغة التي بوشرت عليها"[35].

3-الحوارات الخالصةles dialogues purs:

إن الحوار "من خلال صفائه وبساطته هو الشكل التقليدي للتبادل اللفظي"[36]. وهذا النوع من الحوارية يتسم بالفعالية لكونه يظل خارج خطاب المؤلف، فهو لا يدمجه في إطار سياق الخاص كما هو شأن التهجين والأسلبة، بل يمكث خارج سياق المؤلف، مما يفسح له مجال الفعل والتأثير.

من منطلق السرديات، فالحوار الخالص يوازي الحوار" الذي يتخلل سيرورة الحكي، سواء أكان في شكل حوارات مباشرة بين الشخوص الروائية، أم مونولوج ذاتي"[37]. وتبدو أهمية هذه الحوارات الخالصة عند باختين كون حواريتها مندمجة في الحوارية العامة للرواية.

وعلى غرار الشكلين السابقين، فإن الحوارات الخالصة لا تخلو من دلالات اجتماعية:

-الصراع الفكري بين عدة قوى،

-تفاعل أنماط وعي مختلفة خارجيا وداخليا،

-تفاعل فكري يعكس اختلاف الرؤى تجاه الحياة.

فالحوارات الخالصة تفرز تفاعلا اجتماعيا بين قوى يختلف ملفوظها الروائي، خاصة وأن هذا الصنف الحواري" هو أيضا تعبير عن تصارع انماط الوعي، والرؤى للعالم"[38]. فيغدو الحوار الخالص فضاء حواريا، تتحول فيه اللغة إلى أداة للتواصل الاجتماعي والانتاج الفكري؛ على أساس" أنها الخزان الإيديولوجي الأصيل والأداة التعبيرية الكاشفة التي تبرز إلى مستوى الظاهر ما كان مستترا في أعماق النفس أو العالم من حول الإنسان"[39].

تلك هي أهم الأفكار التي تناولها باختين في حديثه عن مفهوم الحوارية، وهي نفسها الأفكار التي اعتمدت عليها كريستيفا في أبحاثها تحت اسم "التناص".

4- تنضيد اللغة

من وجهة نظر تصنيفية، يقول باختين: "إلى جانب التنضيد للغة إلى أجناس، ينضاف تنضيد آخر يختلط بالأول تارة ليتطابق معه، وطورا يبتعد عنه، وهو التنضيد المهني للغة"[40]. يتضح أن التعدد في اللغة داخل النص الروائي، يتخذ شكلين عبر مستويين من التنضيد:

الأول أجناسي؛ يضم جملة من الأجناس التعبيرية المتنوعة" سواء كانت أدبية(قصص، اشعار، قصائد، مقاطع كوميدية) أو خارج أدبية(دراسات عن السلوك، نصوص بلاغية وعلمية، ودينية...)"[41].

ومن الواضح أن هذه الأجناس بدخولها إلى الرواية، تفقد صفة كونها أنواعا أدبية مغلقة، إنها تخضع لمحاكاة ساخرة، وتكف عن أن تكون ما كانت عليه قبل أن تدخل إلى الرواية. غير أن هذه الأجناس من جانب آخر أساسي، تحافظ عند دخولها إلى الرواية على مرونتها الدلالية ونسقها الأسلوبي، كما أنها تؤثر أسلوبيا على لغة الرواية. فالأمر، إذن، لا يتعلق بلغة، وإنما بحوار لغات.

والثاني مهني؛ والذي تمثله "بالمعنى الواسع: لغة المحامي، والطبيب، والتاجر، والسياسي، والمعلم،..."[42]، ويمكن أن نوسع هذا المفهوم، ونقول بأن التنضيد المهني للغة، يشمل كافة أشكال التقاط اللغات واللهجات والرطانات التي تتفاعل في رحم المجتمع وتتناسل مولدة صورا للغات.

خلاصة:

هكذا نكون قد عرضنا لأهم الأشكال التي تنظم التعدد اللغوي داخل الرواية وهي:

1- أقوال الشخوص.

2- الأجناس المتخللة.

3- صورة اللغة وتشمل التهجين وتعالق اللغات حواريا، والحوارات الخالصة.

4- تنضيد اللغة

وتتميز هذه الأشكال بتنوعها ومرونتها، من هنا " لا تظهر فعالية التعدد اللغوي وإجرائيته في لغة الرواية، إلا إذا صيغ بطريقة حوارية، أي بواسطة نقل ملفوظات الاخرين، وإعادة إنتاج اللغات السائدة في المجتمع"[43].

لذلك ينبني التعدد اللغوي على اختلاف في المواقف الإيديولوجية، وتعدد الرؤى للعالم، وتنوع الدلالات الاجتماعية.

بعبارة أخرى، إن التعدد اللغوي حينما ينتقل إلى الرواية يكسبها بعدا حواريا لا يخلو من دلالات اجتماعية، لأنه يحررها من السرد الأحادي، فتتنوع زوايا النظر، وتختلف، وتتعدد اشكال الحقيقة.

رغم ذلك في الحقيقة أن "باختين"، بقدر ما يقدم لنا تصورا منسجما ومتكاملا لظاهرة التعدد اللغوي والحوارية، فإن بعض المفاهيم والتصورات، تحتاج –على الرغم من ذلك– إلى مزيد من النقاش والتساؤل.

الهوامش:

[1]- ميخائيل باختين (1895-1975) ناقد أدبي روسي، كان يتردد إلى أوساط الشكلانيين الروس في لينغراد، وهو من أهم منظري الأدب في ق 20، له دراسات في اللغة والأدب من أعماله: المنهج الشكلي في التاريخ 1928، الماركسية وفلسفة اللغة 1929، علم الجمال ونظرية الرواية 1965.

2 -Mikhaïl Bakhtine ,Le Marxisme et la philosophie du langage , Paris : Éditions de Minuit,1977 ,44p.

3 - Ibid, 30p.

4- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الأمان، الرباط، ط1/1987، ص32.

5- المرجع نفسه، ص 33.

6- نفسه، ص73.

7- ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، تر. جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1/ 1986، ص 58.

- ميلان كونديرا: فن الرواية، ترجمة بدر الدين عرودكي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع12/16/1991، ص:8.31

9 -Adam schaff,connaissance langage et ,1974,seuil,p33.

10- بيير زيما، النقد الاجتماعي، تر. عايدة لطفي، دار الفكر، ط1/1991، ص 192.

11- مجموعة من الكتاب، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، تر. ناجي مصطفى، الحوار، ط1/1989، ص111.

12- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 46.

13- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، تر. محمد البكري، يمنى العيد، دار توبقال، ط1 /1986، ص 36.

14-Julia kristeva ,semanalyse une pour recherches ,seuil ,1989 ,p170 .

15- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 48.

16-Tzvetan Todorov, Mikhail Bakhtine, le principe dialogique ,Editions du Seuil, Paris, 1981,201p .

17- Julia kristeva ,semanalyse une pour recherches ,op .cit ,p155.

18-Julia kristeva ,echerchessemanalyse une pour r ,op .cit ,p146.

19- الإيديولوجيم: يحيل على العلاقات الداخلية التي تربط النص الأدبي بنصوص أدبية أخرى، وبالحقل الثقافي والاجتماعي..

20- Julia Kristeva, Le texte du roman ,Mouton , 1970, p 12.

21-kristeva Julia ,semanalyse une pour recherches ,op .cit ,p145.

22-Ibid,p 145 .

23- Mikhaïl Bakhtine , Esthétique de la création verbale ,Gallimard , 1984 ,p 329 .

24- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 108.

25- المرجع نفسه، 95.

26-نفسه، ص 66.

27- نفسه، 109.

28- محمد بوعزة، التعدد اللغوي، أشكاله وصيغه، مجلة البيان، الكويت، ع 318، يناير 1997، ص 8.

29- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص 110.
30- المرجع نفسه، ص110.
31- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، تر. جميل نصيف التكريتي، مر. حياة شرارة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ص 288.
32- تزفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدا الحواري، تر. فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1996، ص 130.
33 - ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص:111.
34- ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، مرجع مذكور، ص 282.
35- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص:111.
36- Mikhaïl Bakhtine , Esthétique de la création verbale ,op.cit ,p .278.
37- محمد بوعزة، التعدد اللغوي، أشكاله وصيغه، مرجع مذكور، ص 10.
38- حميد لحميداني، اسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات سال، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص91.
39- عبد السلام أقلمون، النص الروائي والتراث السردي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 30.
40- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، مرجع مذكور، ص:52.
41- المرجع نفسه، ص:78.
42- نفسه، ص:52.
43- محمد بوعزة، الحوارية الروائية، مجلة البيان، الكويت، العدد 340، نوفمبر 1995، ص 6.

المراجـع:

بالعربية:

- أقلمون عبد السلام، النص الروائي والتراث السردي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2000.
- بوعزة محمد، التعدد اللغوي، أشكاله وصيغه، مجلة البيان، الكويت، ع 318، يناير 1997.
- -------، الحوارية الروائية، مجلة البيان، الكويت، العدد 340، نوفمبر 1995.
- باختين ميخائيل، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الأمان، الرباط، ط1/1987.
- --------، الماركسية وفلسفة اللغة، تر. محمد البكري، يمنى العيد، دار توبقال، ط1 /1986.
- --------، الملحمة والرواية، تر. جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط1/ 1986.
- -------، شعرية دوستويفسكي، تر. جميل نصيف التكريتي، مر. حياة شرارة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب.
- تودوروف تزفيتان، ميخائيل باختين: المبدا الحواري، تر. فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2/ 1996.
- زيما بيير، النقد الاجتماعي، تر. عايدة لطفي، دار الفكر، ط1/1991.
- كونديرا ميلان، فن الرواية، ترجمة بدر الدين عرودكي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع12/16/1991.
- لحميداني حميد، اسلوبية الرواية، مدخل نظري، منشورات سال، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- مجموعة من الكتاب، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، تر. ناجي مصطفى، الحوار، ط1/1989.

بالأجنبية:

Bakhtine Mikhaïl , Esthétique de la création verbale ,Gallimard , 1984 .

-------,Le Marxisme et la philosophie du langage , Paris : Éditions de Minuit1977.,

– Kristeva Julia, recherches pour une sémanalyse,seuil ,1989 .

–––––––––, Le texte du roman ,Mouton , 1970 .

– Todorov Tzvetan، Mikhail Bakhtine, le principe dialogique ,Editions du Seuil, Paris, 1981 .